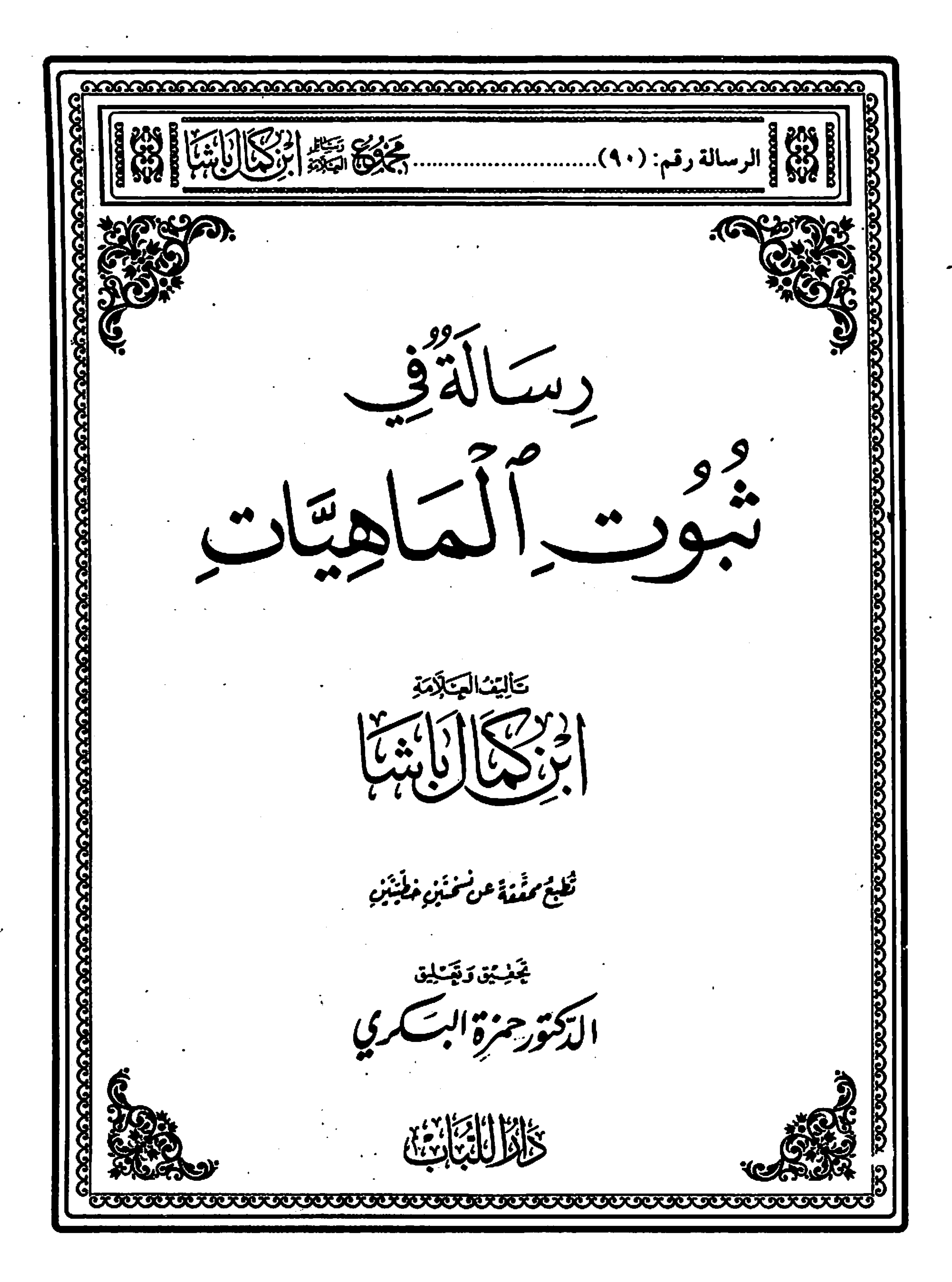


رسالة في ثبوت الماهيات

تأليف العلامة
ابن كمال باشا

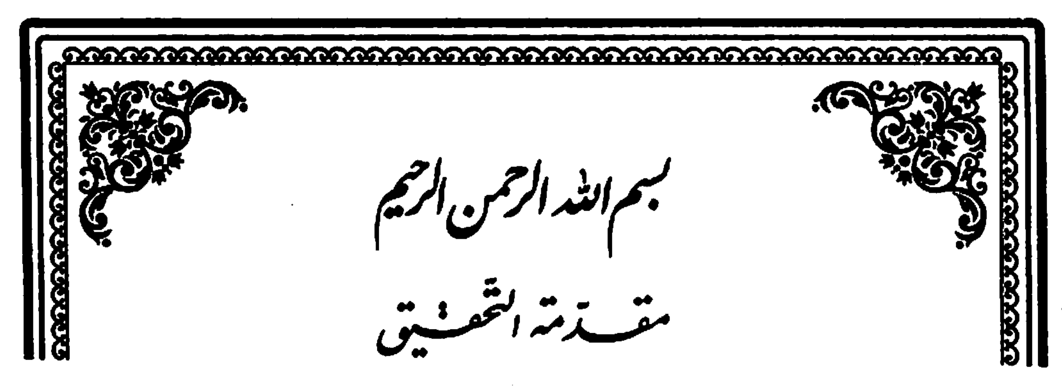
تطبع محققة عن نسختين خطيتين

تحقيق وتعليق
الدكتور حمزة البكري

دار اللباب

مكتبة بغدادي وهبي (ب)

مكتبة شهيد علي باشا (ش)



الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنا محمَّد خاتم النبيِّين، وعلى آلِهِ الطاهرين المُطهَّرين، وصحابته الكِرام المُكرَّمين، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

وبعدُ:

فهذه رسالةٌ صغيرة، صنَّفها العلامةُ الكبير أحمدُ بن سليمان بن كمال باشا، المتوفى سنة (٩٤٠هـ)، رحمه الله تعالى، في بيان ثبوت الماهيّات، يعني: في بيانِ أنّ ماهيّةَ المُمكِن لها ثبوتٌ، ولها نسبةٌ إلى الوجود، ولكنَّها لا تَتَصِفُ بالوجود حقيقةً، بمعنى: أنْ يقومَ الوجودُ بها.

والقولُ المذكور هو قولُ الفلاسفة الإشراقيِّين، وفيهم بعض أهل وحدة الوجود من الصُّوفية، ولذا فقد عُنِيَ المُصنِّفُ في هذه الرسالة بجَمْع أقوالهم وترتيبها بحيثُ يَتَّضِحُ مذهبُهم على الصُّورةِ التي يقولون بها.

ومن هنا، تُعَدُّ هذه الرسالةُ مُتمِّمةً لِمَا بيَّنه المُصنِّف في «رسالته في وجوب الواجب»، فقد أفرَدَ فيها مطلباً لبحث مسألة وحدةِ الوجود، وناقشها بنوع استِفاضة.

لكنْ يُلاحَظُ في هذه الرسالة ـ أعني: «رسالة ثبوت الماهيّات» ـ أنّ المُصنِّفَ سلك فيها طريقَ النَّقل والتَّلخيص[1]، دون البحث والتَّحرير، حتّى إنّه لم يَتعرَّض فيها لبيان

---

(١) وهو مسلكٌ سار عليه المُصنِّف في عددٍ من رسائله، كما لا يخفى.

رأيه فيما يَنقُل، بخلاف «رسالته في وجوب الواجب»، فقد عبَّر فيها عن آرائه صريحاً، وقَبِلَ وأيـَّد، وعارَض وانتَقَد، وكانت شخصيّتُه العِلْميّةُ ظاهرةً فيها بصورة جليّة.

وعليه، فلا ينبغي عَزْوُ شيءٍ مما في هذه الرسالة باعتباره رأياً للمُصنِّف، من دون مقارنته بما في رسالتِهِ الأُخرى المذكورة آنفاً.

ومع ذلك، ففي هذه الرسالة فوائدُ عديدة، وهي مُهِمّةٌ جداً في تحرير محلِّ النِّزاع بين المُتكلِّمين والفلاسفة الإشراقيِّين في مسألة وجود الواجب ووجود المُمكِن، وكذا بين المُتكلِّمين والصُّوفية الوجوديّة.

هذا، والرسالةُ ثابتةُ النِّسبة إلى المُصنِّف، فأسلوبُه فيها ظاهر، وهي تَتَوافَقُ في بعض ما فيها مع ما ذكره في «رسالته في تحقيق وجوب الواجب».

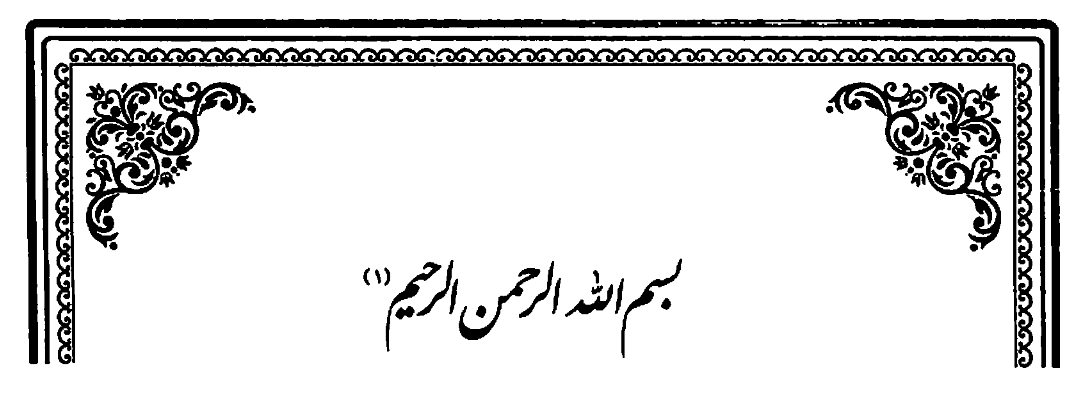
وقد اعتمدتُ في تحقيقها على نُسختَيْن خطيّتَين، الأولى: نسخة مكتبة بغدادي وهبي، ورمزتُ إليها بالحرف (ب)، والثانية: نسخة مكتبة شهيد علي باشا، ورمزتُ إليها بالحرف (ش).

وأما عنوانُها فجاء في (ب): «رسالةٌ شريفةٌ في ثُبوتِ الماهيّاتِ للمَوْلى ابنِ الكمال»، وفي (ش): «رسالة مُتعلِّقة بالوجود الذي ادَّعاه أهل الكشف»، واخترتُ الأول لأنه أقرب إلى التَّسْمية العَلَميّة.

والحمدُ لله في البَدْءِ والخِتام، وصلاتُه وسلامُه على سيِّدنا محمَّد خير الأنام.

المُحقِّق

* * *



الحمدُ لِوليِّه، والصَّلاةُ على نبيِّه.

اعلَمْ أنّ أربابَ الكَشْفِ والعِيانِ[2] لا يُنكِرُونَ ثُبوتَ الماهيّاتِ المُمكِنة، كيفَ وهُم يقولونَ بالأعيانِ الثّابتةِ[3]؟! ولا يُنكِرونَ ثُبوتَ نِسْبةِ الوجودِ إليها، وإنّما يُنكِرُونَ المُمكِنَ ذا وُجودٍ، وبذلكَ يُفارِقُونَ أصحابَ النَّظَرِ والبُرْهانِ[4]، فإنّ وجودَ المُمكِنِ عندَهم[5] مُستَفادٌ مِنَ الغَيْرِ، وعندَ هؤلاءِ[6] مُستَعارٌ[7] منه، والفَرْقُ واضِح.

تمثيلٌ: يقولُ أهلُ النَّظَرِ: اللَّوْنُ للزُّجاجِ، ويقولُ أهلُ الكَشْفِ: اللَّوْنُ للخَمْرِ، وإنّما للزُّجاجِ مَظهَرِيَّةُ لونِها.

---

(١) في (ب): «باسمه سبحانه»، وليست في (ش)، وأثبتُّها بصيغتها المشهورة لتُوافِقَ نظائرَها في سائر الرسائل.

(٢) يعني: الفلاسفة الإشراقيِّين.

(٣) وهي حقائقُ المُمكِنات في عِلم الحقِّ سبحانه وتعالى، أو هي الصُّوَرُ العِلْميّة للأعيان الخارجيّة. وهي أزليّةٌ أبديّةٌ، إلا أنها مُتأخِّرة عنه تعالى تأخُّراً ذاتياً. انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص: ٣٠)، و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي (٢/ ١٢٤٣)، و«دستور العلماء» للأحمد نكري (١/ ٩٦).

(٤) يعني: المُتكلِّمين والفلاسفة العَقْلانيِّين.

(٥) أي: عند أهل النظر والبرهان.

(٦) أي: عند أهل الكشف والعِيان.

(٧) في النُّسختَيْن: «مستفاد»، ولا يستقيم، وأصلحتُه مما سيأتي بعد بيتي الشِّعْر قريباً.

رَقَّ الزُّجَاجُ ورَقَّتِ الخَمْرُ فتَشابَها وتَشاكَلَ الأمْرُ
فكأنَّهُ خَمْرٌ ولا قَدَحٌ وكأنَّهُ قَدَحٌ ولا خَمْرُ[1]

ولذلكَ ـ أي: لِكونِ الوجودِ في المُمكِنِ مُستَعاراً، كاللَّوْنِ في الزُّجاجِ ـ قالَ مَنْ قالَ[2]: الأعيانُ الثَّابتةُ ما شَمَّتْ رائحةَ الوجودِ، وإنَّها لم تَظهَرْ ولا تَظهَرُ أبداً، إنَّما يَظهَرُ رَسْمُها.

سَمِعَ بعضُ العارِفينَ[3] قولَه ﷺ: «كانَ اللهُ ولم يَكُنْ معَه شيءٌ»[4]، فقالَ: «وهوَ الآنَ على ما كانَ عليه»[5].

(١) البيتان نُسِبا لأبي نُوَاس (١٤٦ ـ ١٩٨) تارةً، وللسُّهْرَوَرْديّ المقتول يحيى بن حَبَش بن أميرك (٥٤٩ ـ ٥٨٧) أخرى، والصحيحُ أنهما للصاحب ابن عبّاد، وهو الوزير الأديب أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد الطالقانيّ (٣٢٦ ـ ٣٨٥)، وقد عُزِيا إليه في عدّة مصادر، من أقدمها «يتيمة الدهر» للثعالبيّ (٣/ ٣٠٤).

(٢) هو الشيخ محيي الدين ابن عربي، وقد ذكره في «فصوص الحِكَم» (ص: ٧٦)، دون قوله: «وإنها لم تظهر... رسمها»، ولعلّه ذكره في موضع آخر من كتبه، والمُصنِّفُ ينقلُ عن «الزَّوْراء» للدَّوَّانيّ (لوحة ٢/ ب)، وهو فيه بتمامه.

(٣) لعلّه الجُنَيد رضي الله عنه، فقد نقل الإمامُ الغزاليُّ في «روضة الطالبين وعمدة السالكين» (ص: ١٤١ من «رسائل الغزالي») عنه أنه قال: «إنه تعالى كان ولم يكن معه شيء، وهو الآن على ما هو عليه».

(٤) أخرجه البخاري (٧٤١٨) من حديث عمران بن حصين، بلفظ: «كان الله ولم يكن شيء قبله». وأخرجه البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بلفظ: «كان الله ولم يكن شيء غيره»، وأحمد في «مسنده» (١٩٨٧٦) بلفظ: «كان الله قبل كل شيء». قال الحافظ ابن حجر: «وهو بمعنى: كان الله ولم يكن شيء معه».

(٥) ليست من الحديث كما هو صريحُ كلام المُصنِّف، وقد زِيدَتْ في الحديث في بعض الكتب، وليست منه في شيء من كتب الحديث، كما في «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٢٨٩). =

البَحْـرُ بَحْـرٌ علـى مـا كانَ فـي قِـدَمٍ إنّ الـحـوادِثَ أمـواجٌ وأنـهـارُ(١)

تمثيـلٌ وتَصْويـرٌ: الثَّـوْبُ إنِ اعتُبِـرَ صُورةً فـي القُطْـنِ كانَ مَوْجـوداً، وإنِ اعتُبِرَ أمـراً مُبايِنـاً للقُطْنِ ذاتاً علـى حِـدَةٍ(٢) كانَ مُمتَنِعـاً(٣). فالمُمكِنُ ما لم يُجاوِزْ حَدَّه لا يُشـابِهُ ضِدَّه.

وإيّاكَ أنْ تَنطِقَ أنّ الواجبَ مادّةُ المُمكِنِ أو مَوْضوعُها، فإنّه تعالى مُنزَّهٌ عن ذلكَ، والعَلاقةُ بينَهما علاقةُ الظُّهورِ والقَبولِ لا علاقةُ الاتِّصافِ والحُلولِ، والغَرَضُ مِنَ التَّمْثيلِ المَعْقول(٤): تَشْبيهُ المَعْقولِ بالمَحْسوسِ؛ تَلْييناً لِعَريكةِ الوَهْمِ وتَقْريباً إلى الإذعانِ والقَبول، وإلّا فلا ارتِباطَ له بالمَقْدورات.

چُـونْ خُـورُ زِ فُرُوغِ خُودْ جِهَانْ آرايَـدْ بـر پَـاكْ وُپَـلِيـدْ اگَـرْ بَتَابَدْ شـايَدْ

= وهذه الزيادةُ «عزاها بعضُهم إلى عليّ كرّم الله وجهَه، وبعضُهم إلى الجُنَيد، وقائلُها ـ على فرض ثبوتها ـ أراد بها نكتةً مجازيةً، وهي الإشارةُ إلى أنّ وجود العالم في حالة وجوده أيضاً منزلتُه كمنزلة العَدَم بالنسبة إلى وجود الله، ولم يُرِدْ قائلُها جزماً ـ سواء كان عليّاً أو جُنَيداً ـ الاعتراضَ على حديث النبيِّ ﷺ لتخصيص عَدَم العالم فيه بالماضي». كما قاله العلامة الشيخ مصطفى صبري رحمه الله في «موقف العقل» (٣/ ١٩٨).

(١) البيتُ لبعض الصوفية، ولعلّه للشيخ محيي الدين ابن عربي، وقد تقدَّم الكلامُ عليه في التعليق على «رسالة في تحقيق وجوب الواجب».
ولمّا ذكره المُصنِّفُ في رسالته المذكورة آنفاً مع أمثلة أُخرى يُمثّلُ بها أصحابُ هذا المذهب مذهبَهم، قال المُصنِّف بإثرها: «وبالجملة، مقالُهم في هذا المقام لا يخلو عن اضطراب».

(٢) في نسخة على حاشية (ش): «على حيالِهِ»، وكذا هو في «الزوراء».

(٣) هذا التصوير مستفادٌ من «الزوراء» للدَّوّاني، (لوحة ٢/ ب).

(٤) كذا في النسختين، ولعل الصواب: «المَقُول»، والله أعلم.

نَـيْ نُـورِ وَيْ أَزْ هِيـچْ پَـلِيدْ آلايَدْ؟ نَـيْ پَاكِـيْ أَوْ زِ هِيـچْ پَـاكْ أَفْزَايَـدْ[1]

المُمكِنُ في ذاتِهِ مَعْدومٌ، وبوَجْهِهِ مَوْجودٌ، وكلُّ شيءٍ هالِكٌ إلا وَجْهَه، وذلكَ الوَجْهُ جهةُ مَظهَرِيَّتِهِ له تعالى، وحَيْثِيَّةُ كونِهِ شأناً مِن شؤونِهِ، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ولا يَشغَلُه شأنٌ عن شأن.

وما وَرَدَ في الأثرِ مِن قولِهِ عليه السَّلامُ: «ثمَّ رشَّ عليهم مِن نُورِه»[2] يُنبِئُ عن حَظِّ المُمكِنِ مِن وجودٍ مُستَقِلٍّ، فإنّ عبارةَ الرَّشِّ المُشعِرةَ بمَعْنى الإعطاءِ تُلْقي ذلكَ المَعْنى إلى الوَهْم.

وما وَرَدَ في نصِّ الكِتابِ مِن قولِهِ تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزُّمَر: ٦٩] أي: أرضُ الماهيّاتِ القابلةِ، يَدفَعُ[3] ظُلْمةَ ذلكَ الوَهْم، كما لا يَخْفى على مَنْ له الفَهْم.

الوجودُ الذي يَبحَثُ عنه أهلُ النَّظَرِ اعتِباريٌّ عارِضٌ للماهيّاتِ قائمٌ بها، والوجودُ الذي يُثبِتُه أربابُ الكَشْفِ وأصحابُ الشُّهودِ أمرٌ حَقيقيٌّ مَعْروضٌ

---

(١) ومعناهما بالعربية: كما أن الشمس تُزيِّنُ العالَمَ بنفسِها، وتَسطَعُ على كلِّ شيءٍ من مُتَّسِخ وطاهِر، فكذلك نورُه لا يتَّسِخُ بأيِّ مُتَّسِخ، ولا يزدادُ طهارةً بأيِّ طاهر.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦٦٤٤) و(٦٨٥٤)، والترمذي (٢٦٤٢) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص، بلفظ: «إنّ الله خلق خَلْقَه في ظُلْمة، فألقى عليهم من نُورِه، فمن أصابه ذلك النُّور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ»، وقال الترمذي: «حديث حسن»، وصحّحه ابن حبان (٦١٦٩) و(٦١٧٠).

وأما لفظُ «الرشّ» فلم أقف عليه مُسنَداً، وإنما أورده الحكيمُ الترمذيُّ في «نوادر الأصول» (٤/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

(٣) في (ب): «بدفع»، وهو خطأ.

للماهيّاتِ وقيُّومٌ لها، فلا نِزاعَ لهم في كَوْنِ الماهيّاتِ مَوْجودةً بالوجودِ بالمَعْنى الأوَّلِ، فتأمَّلْ.

سُسْتِيْ بِقِيَاسِ عَقْلِ أصْحَابِ قُيُودْ ... چُونْ أعْيَانِ حَقَائِقْ نُمُودْ؟

لِيكِنْ بِمُكاشَفَاتِ أرْبَابِ شُهُودْ ... أعْيانْ هَمَهْ عَارِضَنْدْ ومَعْرُوضْ وُجُودْ[1][2]

* * *

(١) ومعناهما بالعربية: إنّ المقاييسَ التي وضعَها أهلُ القيود ضعيفة، فكيف تُري حقائق الأعيان. ولكنْ على حسب مكاشفاتِ أرباب الشهود، الأعيانُ كلُّها عارضةٌ والوجودُ هو المَعْروض.

(٢) بعدها في (ب): «والحمد لله وحده»، وفي (ش): «تمَّت».

وعلى حاشية (ب) فائدة، وهي: «شيخ عراقي:

نُورِ خُدْرا جِلْوَهْ دادَهْ دَرْ لِبَاسِ إينْ وُآنْ ... دَرْ جِهَانْ آوازَهْء كَوْنْ وُمَكَانْ أفْرَاخْتَهْ».

قلت: شيخ عراقي: هو فخر الدين إبراهيم بن شهريار العراقيّ (ت ٦٨٠) صاحب كتاب «اللمعات» في التصوُّف، وهو منظومٌ باللغة الفارسية، وله شروح. انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٥٦٣).

ومعنى البيت: نورُه يَتَجلّى في ثوب هذا وذاك، ويَعكِسُ في العالَم صَدى الكونِ والمكان.